البعد اللغوي في تفسير القرطبي
دراسة تحليلية

شريفة زغيشي
جامعة الحاج لخضر – باتنة

الملخص:

يصنف تفسير القرطبي الموسوم بـ" الجامع لأحكام القرآن " ضمن التفسير الفقهي، وهذا اللون من التفسير يعنى بإبراز الجانب الفقهي للقرآن الكريم، بمعنى أنه يركز على استخلاص واستنتاج الأحكام الفقهية من النصوص القرآنية، ومع هذا التركيز على الناحية الفقهية، نلاحظ أيضا اهتمامه بالجانب اللغوي، فقد أولاه عناية خاصة، لأنّه يهتم ببيان دلالات الألفاظ، وإظهار معانيها، ويعالج النحو القرآني من الزاوية التي تخدم تفسير القرآن وتنسّق معانيه، ويعتني أيضًا ببيان الصور البلاغية، كما أنّ للشعر نصيب وافر من هذا الاهتمام.

وقد جاء هذا المقال ليفصل في هذا الأمر، ويبرز البعد اللغوي في هذا التفسير القيم.

مقدمة

بالرغم من أنّ الإمام القرطبي ركز اهتمامه ــ في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ــ على استنباط الأحكام الفقهية من الآيات القرآنية الكريمة حتى صنف تفسيره ضمن التفسير الفقهي للقرآن الكريم، إلا أنه لم يقتصر على بيان الأحكام الشرعية فقط، وإنما كان يفسر الآيات القرآنية الكريمة، ويبين ما تحمله ألفاظها من دلالات ومعان، وأوجه إعرابية، وذلك لكون القرآن الكريم نزل بلغة العرب" فإذن لا ينبغي لأحد أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى ما لم تتحقق فيه أهلية التفسير التي تقوم على أصول من أهمها: معرفة اللسان العربي التي تقتضي الوقوف على المعاني التي وضعت للألفاظ والهيئات والصيغ الواردة عليها الدالة على معانيها المختلفة: "التصريف" والفروع المأخوذة منها: " الاشتقاق" وكيفية التراكيب بحسب الإعراب: "النحو" وما يتعلق بفصاحة الألفاظ والتراكيب وطرق تأدية مقاصدها: " البلاغة"[1].وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: "إن القرآن نزل بلسان العرب

[1] ــ مصطفى إبراهيم المشني: مدرسة التفسير في الأندلس ص:325 ، الطبعة الأولى: 1406هـ ــ 1986م. بيروت. لبنان. مؤسسة الرسالة.

على الجملة فطلب فهمه إنما يكون في هذا الطريق خاصة لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1]. وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2]، وقال: ﴿لِّسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[3]. وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا اَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتَ ـــ ايَاتُهُۥٓ ءَآعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[4]. إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي، بلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة[5].

ويقول صاحب الإتقان: "وعلى الناظر في كتاب الله تعالى، الكاشف عن أسراره، النظر في الكلمة وصيغتها، ومحلها ككونها مبتدأ أو خبرا أو فاعلا أو مفعولا أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلى غير ذلك"[6].

وقد أفرد الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره بابا سماه: "باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربا"[7].ضمنه مجموعة من الأحاديث والأخبار تدل في مجموعها على تفضيل من قرأ القرآن معربا وذم اللحن فيه وذلك "صونا من تحريف الكلم عن مواضعه ودرءا للخروج على مراد الله تبارك وتعالى"[8].

ومن الأحاديث والأخبار التي أوردها القرطبي في هذا الشأن ما رواه أبو هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه"[9]وروى جويبر عن الضحاك قال: قال عبد الله بن مسعود: "جوّدوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يحب أن يعرب به". وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: "لَبعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه"[10].

" والمقصود من الإعراب في هذه النصوص ليس ما اطلع عليه علماء النحو، وإنما المقصود تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه وبيان غريبه[11].

---

[1] ـــ سورة يوسف الآية 2

[2] ـــ سورة الشعراء الآية 195.

[3] ـــ سورة النحل، الآية103.

[4] ـــ سورة فصلت، الآية 44.

[5] ـــ الشاطبي: **الموافقات في أصول الشريعة**2/49ـــ 50 .

[6] ـــ جلال الدين السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**. 1/235.

[7] ـــ القرطبي: **الجامع** 1/31 ـــ32 ـــ 33.

[8] ـــ مصطفى إبراهيم المشني: **مدرسة التفسير في الأندلس** ص: 393.

[9] ـــ الحاكم النيسابوري: **المستدرك في الصحيحين**. 2/439 . وقد علق عليه الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا، و لم يخرجاه. وعلق عليه الحافظ الذهبي في الذيل: صحيح عند جماعة. (قلت): بل أجمع على ضعفه.

كتاب التفسير، تفسير سورة قم السجدة.

[10] ـــ القرطبي، **الجامع** 1/31.

[11] ـــ مدرسة التفسير بالأندلس، ص 393 ـــ 394 ـــ السيوطي: **الإتقان** 2/224.

ومن بين ما نقله القرطبي أيضا ــ في هذا السياق ــ هذه القصة التي حدثت في زمن عمر بن الخطاب والتي رواها ابن أبي مليكة قال: "قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال: فأقرأه رجل "براءة"، فقال: (...أنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)[1] بالجرّ، فقال الأعرابيّ: أو قد برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابيّ فدعاه فقال: يا أعرابيّ أتبرأ من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة "براءة"، فقال: (أنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)؛ فقلت: أو قد برئ الله من رسوله، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيّ؛ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال:" إن الله بريء من المشركين ورسوله" فقال الأعرابي: "وأنا والله أبرأ مما برء الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع النحو"[2].

ومن خلال هذه النصوص التي أوردها القرطبي في مقدمة تفسيره، يتضح لنا مدى اهتمامه البالغ باللغة العربية كأصل يقوم عليها فهم معاني ألفاظ القرآن الكريم وإدراك مقاصده، وبيان أحكامه.

وقد لاحظت أن اهتمامه باللغة عند تفسير الآيات القرآنية ينحصر في الجوانب الآتية:

أولا: البحث في اشتقاق الألفاظ.

ثانيا: ذكر دلالتها .

ثالثا: ذكر ما ورد في الألفاظ من أوجه إعرابية، واختلافات النحويين.

رابعا: إبراز النواحي البلاغية.

خامسا: استعانته بالشعر لمعرفة ما خفي من معاني الألفاظ.

سادسا: اعتناؤه بالقراءات.

و عليه يجدر بي أن أسلط الضوء على كل عنصر من هذه العناصر، وأنقل للقارئ الكريم الأمثلة التي توضح منهج القرطبي في معالجته للجوانب اللغوية والنحوية في تفسير الآيات القرآنية.

أولا: النحت والاشتقاق:

1ــ النحت: هو أن تنتزع أصوات كلمة من كلمتين فأكثر أو من جملة للدلالة على معنى مركب من معاني الأصول التي انتزعت منها[3].

وأصل هذه الظاهرة ما ذكره الخليل حينما قال في تعليقه على قول الشاعر:

---

[1] ــ سورة التوبة، الآية 03.

[2] ــ القرطبي: **الجامع**، باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه 31/1 ــ 32.

[3] ــ علي عبد الواحد وافي: **فقه اللغة**، ص 180. الطبعة السادسة 1388هـ ــ 1968م الفجالة. القاهرة. دار النهضة مصر للطبع والنشر.

وتضحـــك منـــي شيخـــة عبشميّـــــة كأن لم تر قبلي أسيرا يمانيـــا

"نسبها إلى عبد شمس، فأخذ (العين) و (الباء) من (عبد)، وأخذ (الشين)، و (الميم) من (شمس)، وأسقط الدال والسين، فبنى من الكلمتين كلمة، فهذا من النحت"[1].

موقف القرطبي من النحت:

لم ينص الإمام القرطبي على مصطلح النّحت أثناء تفسيره للآيات القرآنية الكريمة، ولكنه تطرق إليه عرضا وهو يتحدث عن بعض الألفاظ المولدة التي جاءت في اللغة عن طريق النحت، فأورد جملة ألفاظ منحوتة وسمّى هذه الألفاظ المنحوتة مولدة لأنها ليست متصلة في اللغة"[2]، وهذا ما نلاحظه في المسألة السابعة من مسائل "البسملة" حيث يقول القرطبي على لسان الماوردي: "قال الماوردي: ويقال لمن قال بسم الله: مبسمل، وهي لغة مولدة وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة:

لقـد بسملـت ليلـى غـداة لقيتهـا فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمـــل

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السّكيت والمطرّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله، يقال: قد أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله. ومثله حوقل الرجل، إذا قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله. وهلل، إذا قال: لا إله إلا الله، وسبحل، إذا قال: سبحان الله. وحمدل، إذا قال: الحمد لله. وحيصل، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجعفل، إذا قال: جعلت فداك. وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك. ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك. وحيفل، إذا قال: حيّ على الفلاح.ولم يذكر المطرّز: الحيصل، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجعفل، إذا قال: جعلت فداك. وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك. ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك.[3]

2ـ الاشتقاق: وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في الصيغة مع تشابه بينهما في المعنى، واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها، ليدل بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة: كضارب من: ضرب، وحذر من حَذِرَ[4]"

وقد عدّه السيوطي من بين العلوم التي يحتاجها المفسر لتمييز المعاني الحقيقية للألفاظ "لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما، كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح"[1].

---

[1] ـ عبد القادر رحيم جدي الهيتي: **أبو عبد الله القرطبي وجهوده في النحو واللغة** في كتابه.1/ 60 ـ61 الطبعة الأولى: 1417هـ ـ 1696م. لبنان. بيروت. مؤسسة الرسالة ، ص 218 نقلا عن "العين"

[2] ـ الهيتي: أبو عبد الله القرطبي وجهوده في النحو واللغة، ص219.

[3] ـ القرطبي: الجامع: المسألة السابعة من "البسملة" 1/ 93.

[4] ـ أنظر في تعريف الاشتقاق: ـ جلال الدين السيوطي: **المزهر في علوم اللغة** ص: من 345 إلى 351.بيروت . لبنان. دار البيضاء.

ـ ابن جني: **الخصائص** 2/ 134. تحقيق محمد علي النجار. بيروت. لبنان. دار الكتاب العربي.

ـ عبد القادر رحيم جدي الهيتي: أبو عبد الله القرطبي وجهوده في النحو واللغة في كتابه ص: 216.

وقد تعرض القرطبي لدراسة الألفاظ القرآنية من حيث اشتقاقها فكان يأتي باللفظ، ثم يشتق منه الألفاظ القريبة منه المشتركة معه في الحروف لينتهي في الأخير إلى بيان معناه. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

ـ ما جاء في المسألة العاشرة من تفسير قوله تعالى: ﴿يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ اَلصَّلاَةَ﴾[2]، فنجد القرطبي يبين المعنى اللغوي للصلاة، وما جاء من أقوال في أصل اشتقاقها. يقول في هذه المسألة:

"الصلاة: أصلها في اللغة الدعاء، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام: "إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرا فليطعم، وإن كان صائما فلّيصل"[3]، أي: فليدع. وقال بعض العلماء: إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين وينصرف، والأول أشهر وعليه من العلماء أكثر. ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير، أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قالت أسماء: "ثم مسحه وصلى عليه" أي دعا له. وقال تعالى: (وَصَلِّ عَلَيْهِمُ)[4] أي أدع لهم. وقال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا ... يا ربّ جنّب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال الأعشى أيضا:

وقابلها الريح في دُنّها ... وصلى على دنّها وارتسم"[5].

فالقرطبي يذكر المعنى اللغوي للفظ الصلاة، ويأتي بأصل اشتقاقها حيث يقول: "مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا" أي أن هذا المعنى مرتبط بهذا الأصل الذي اشتقّت منه الصلاة، وهو يدلل على ذلك من السنة والقرآن والشعر.

ثم يجيء بعد ذلك، وينقل إلينا ما ورد من أقوال في أصل اشتقاقها ـ بعد أن بين القول المشهور والراجح ـ حيث يقول: "وقال قوم: هي مأخوذة من الصلا، وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتنفه، ومنه أُخذَ المُصَلّى في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة ورأسه عند صَلْوى السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صلواه ...

وقيل: هي مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلي بالنار إذا لزمها؛ ومنه (تصلى نارا حامية)[6].

قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جُنَاها علم الله ... هُ وإني بحرّها اليوم صال

---

[1] ـ السيوطي: الإتقان 2/ 231.

[2] ـ سورة البقرة، الآية: 03.

[3] ـ مسلم: الصحيح 1052/2 ـ 1053 كتاب النكاح، باب: الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة الطعام.

[4] ـ سورة التوبة، الآية 103.

[5] ـ القرطبي: الجامع 1/ 164.

[6] ـ سورة الغاشية، الآية 04.

أي ملازم لحرّها؛ وكأن المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذي أمر الله تعالى به.

وقيل: هي مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصّلاء. والصّلاء: صلاء النار بكسر الصاء ممدود؛ فإن فتحت الصاد قصرت، فقلت: صلا النار، فكأن المصلي يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع. قال الخارزنجي:

فلا تعجل بأمرك واستدمْـــــــهُ فما صلّى عصاك كمستديـــــــم"[1].

فهو ينقل ما جاء من الأقوال الأخرى في أصل اشتقاقها، ويستدل على كل قول بما ورد من القرآن والأخبار والشعر. وكذلك يبين في كل قول وجه المناسبة بين لفظ الصلاة، والأصل الذي اشتقت منه، كأن يقول مثلا: "هي مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصلاء... فكأن المصلي يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع"[2]، فمعنى الصلاة إذن يختلف بإختلاف أصل اشتقاقها.

ومن أمثلة ما ذكره القرطبي في الاشتقاق، نقله إلينا اختلاف البصريين والكوفيين في اشتقاق الاسم وترجيحه رأي البصريين؛ حيث يقول في المسألة السابعة عشرة من مسائل البسملة:

"واختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون: هو مشتق من السّموّ، وهو العلوّ والرفعة، فقيل: اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، وقيل: لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره. وقيل: إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام: الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمي اسما، فهذه ثلاثة أقوال.

وقال الكوفيون: إنه مشتق من السّمة وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا "وسم". والأول أصح؛ لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها؛ فلا يقال: وسيم ولا أوسام"[3].

فالقرطبي رجح إذن رأي البصريين القائل بأن الاسم مشتق من السمو، ورد رأي الكوفيين القائل بأنه مشتق من السمة، وحجته في ذلك أنه لو كان مشتقا من (السّمة) لقيل في تصغيره (وسيم) وفي جمعه (أوسام) وهذا لا يطابق الأصل الذي هو (الاسم).

كما استدل أيضا على صحة مذهب البصريين، ورد مذهب الكوفيين بمسألة عقدية حيث يقول:

" ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي:

الثامنة عشرة: فإن من قال الاسم مشتق من العلوّ يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة.

---

[1] ــ القرطبي: الجامع. 164/1 ــ 165.

[2] ــ القرطبي: الجامع 1/ 165.

[3] ــ القرطبي: الجامع 1/ 97. المسألة السابعة عشرة من مسائل البسملة.

ومن قال هذا الاسم مشتق من السمة يقول: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فإذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة، وهذا قول المعتزلة، وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة..."[1].

فإثارة القرطبي لاختلاف اللغة في قضية اشتقاق الاسم، وبيان حججهم وترجيح ما صح من أقوالهم، لدليل على اهتمامه بظاهرة الاشتقاق أثناء تفسير الآيات القرآنية الكريمة.

ثانيا: ذكر دلالات الألفاظ:

ويتضمن ما يلي:

1ـ الاهتمام بمعاني الألفاظ اللغوية:

ويلاحظ هذا كثيرا في تفسير القرطبي، فهو لا يتعدّى الآية إلى آية أخرى، حتى يبين معاني ألفاظها، وبالتالي يتوصل إلى تعيين المعنى الحقيقي للآيات القرآنية، بما في ذلك استخلاص الأحكام الشرعية التي تتضمنها.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أ ـ بيانه لمعنى الركوع في قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[2].حيث يقول في المسألة الخامسة."قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ﴾ الركوع في اللغة الإنحناء بالشخص؛ وكل منحن راكع. قال لبيد:

أخبّرُ أخبار القرون التي مضت أدبٌ كأني كلما قمت راكع

وقال ابن دريد: الركعة الهوّة في الأرض، لغة يمانية: وقيل: الانحناء يعمّ الركوع والسجود، ويستعار أيضا في الانحطاط في المنزلة، قال:

ولا تعاد الضعيف علّك أن تركع يوما والدهر قد رفعه"[3].

فالقرطبي يجمع ما جاء من معان للفظ الركوع، ويستدل على ذلك بالشعر للزيادة في التوضيح.

ب ـ بيانه للمعنى اللغوي للفظ (التيمم) حيث يقول في المسألة الرابعة والثلاثين من تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[4]:

"فالتيمم لغة هو القصد: تيممت الشيء: قصدته، وتيممت الصعيد: تعمدته، وتيممته برمحي وسهمي أي قصدته دون من سواه. وأنشد الخليل:

يمّمته الرمح شزرا[5] ثم قلت له هذي البسالة لا لعب الزحاليق

وقال امرؤ القيس:

---

[1] ـ القرطبي: **الجامع** 1/ 97 المسألة الثامنة عشرة من مسائل البسملة.

[2] ـ سورة البقرة، الآية 43.

[3] ـ القرطبي: **الجامع** 323/1. المسألة الخامسة من تفسير الآية 43 من سورة البقرة.

[4] ـ سورة النساء، الآية:43.

[5] ـ الشزر: ماطعنت عن يمينك وعن شمالك. أنظر عبد الله العلايلي: **الصحاح في اللغة والعلوم**665/1،الطبعة الأولى 1394هـ ـ 1974م.بيروت. دار الحضارة العربية.

تيممتها من أذرعات وأهلهـــــــــــا بيثرب أدنى دارها نظر عـــــــال

وقال أعشى باهله:

تيممت قيسا وكم دونـــــــــــــه من الأرض من مهمـــــه[1] ذي شزن[2]

وللشافعي رضي الله عنه:

علمي معي حيثما يمّمت أحملـــــــــــه بطني وعاء له لا بطن صنـــــــدوق

قال ابن السّكيت* : قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[3] أي اقصدوا، ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب.

وقال ابن الأنباري في قولهم: قد تيمم الرجل: معناه قد مسح التراب على وجهه ويديه.

قلت: وهوالتيمم الشرعي، إذا كان المقصود به القربة.

ويمّمت المريض فتيمم للصلاة. ورجل ميمّم: يظفر بكل ما يطلب، عن الشيباني. وأنشد:

إنا وجدنا أعصر بن سعـــــــــــد ميمّم البيت رفيع المجـــــــــد

وقال آخر:

أزهر لم يولد بنجم الشـــــــــــحّ ميمّم البيت كريم السنـــــــج[4]

فنلاحظ في هذا المثال أن القرطبي بين المعنى اللغوي للفظ التيمم الذي هو القصد، واستشهد علـــى هـــذا بعدد من الأبيات الشعرية للزيادة في تأكيد هذا المعنى وتوضيحه، ثم استخلص بعد ذلك المعنى الشرعي للتـــيمم، الذي هو:" مسح التراب على وجهه ويديه"، وهذا انطلاقا من الاستعمال اللغوي الشائع لهذا اللفظ.

جـــ ــ بيانه لمعنى الصعيد حيث يقول في المسألة الحادية والأربعين من تفسير قوله تعـــالى: ﴿فَتَيَمَّمُـــوا صَـــعِيدًا طَيِّبًا﴾[5]: " قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. الصعيد: وجـــــه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن، قاله الخليل وابن

---

[1] ــ المهمه: المفازة البعيدة الأطراف. المرجع نفسه 2/ 517.

[2] ــ الشزن: الغلظ من الأرض. المرجع نفسه 665/1.

* يعقوب بن أسحاق، أبو يوسف بن السّكيت، النحوي، اللغوي، صاحب كتاب (إصلاح المنطق) من أهل الفضل والدين، موثوق بروايته، مـــن مؤلفاتـــه أيضا: (معاني الشعر) و (القلب الإبدال). مات في رجب في سنة ثلاث،وقيل: من سنة أربع، وقيل: ست وأربعين ومائتين، وقد بلغ ثمانيا وخمسين سنة.

أنظر في ترجمته: ــ ابن خلكان: **وفيات الأعيا**ن 395/6.

ــ ابن النديم: الفهرست، ص 114 ــ 115.

ــ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 14/ 273 ــ 274.

[3] ــ سورة النساء، الآية:43.

[4] ــ القرطبي: **الجامع**: 5/ 200 ــ 201 المسألة الرابعة والثلاثون من تفسير الآية: 43 من سورة النساء.

[5] ــ سورة النساء، الآية 43.

الأعرابي والزجاج. قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[1] أي أرضا غليظة لا تنبت شيئا. وقال تعالى: ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[2]. ومنه قول ذي الرمة:

كأنه بالضّحى ترمي الصعيد بـــــــــــه دبابة في عظام الرأس خرطوم

وإنما سمي صعيدا لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض"[3].

فالقرطبي يبين المعنى اللغوي للفظ الصعيد، وهذا حسب ما جاء على لسان علماء اللغة في معناه، واستدل على هذا أيضا بما جاء في القرآن الكريم والشعر من استعمال لهذه الكلمة.

2 ــ الاشتراك اللفظـــي:

وهو يقابل الترادف، وذلك بأن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق الحقيقـــة لا المجاز[4].وقد اختلف الباحثون في مبلغ ورود المشترك اللفظي في اللغة. فذهب البعض إلى إنكاره، وذهب فريـــق إلى كثرة وروده[5].ويبدو أن إمامنا القرطبي من بين القائلين بوجود هذه الظاهرة في اللغة العربية، بدليل إشارته إلى أن بعض الألفاظ الواردة في القرآن الكريم هي من قبيل المشترك اللفظي. وأمثلة ذلك، ما يلي:

المثال الأول: يقول القرطبي في بيان معنى لفظ (الصلاة) وهذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾[6].

"والصلاة: الدعاء. والصلاة الرحمة؛ ومنه: "اللهم صلّ على محمد"[7] الحديث. والصلاة: العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ﴾[8]الآية؛ أي عبادتهم.والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعـــالى: ﴿وَامُـــرْ اَهْلَـــكَ بِالصَّلاَةِ﴾[9].والصلاة: التسبيح: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنـــَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[10] أي من المـــصلين. ومنـــه سبحة الضحى.وقد قيل في تأويل: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[11]: نصلي.والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعـــالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾[12]، فهي لفظ مشترك"[13]

---

[1] ــ سورة الكهف، الآية، 8

[2] ــ سورة الكهف، الآية 40.

[3] ــ القرطبي، **الجامع** 5/ 204 المسألة الحادية والأربعون من تفسير الآية 43 سورة النساء.

[4] ــ د/ علي عبد الواحد وافي: **فقه اللغة**، ص: 189.

[5] ــ المرجع نفسه. ص: 189 / وأنظر أيضا: جلال الدين السيوطي: **المزهر في علوم اللغة**، ص: 380.

[6] ــ سورة البقرة، الآية 03

[7] ــ مسلم: الصحيح 1/ 305 ــ 306 كتاب الصلاة. باب: الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد التشهد.

[8] ــ سورة الأنفال، الآية 35.

[9] ــ سورة طه، الآية 132.

[10] ــ سورة الصافات، الآية 143.

[11] ــ سورة البقرة، الآية 30.

[12] ــ سورة الإسراء، الآية 110.

[13] ــ القرطبي: **الجامع** 1/ 165 المسألة العاشرة من تفسير الآية: 03 من سورة البقرة.

فقد ذكر للصلاة عدة معان وهي: الدعاء، الرحمة، العبادة، النافلة، التسبيح، القراءة. وصرح بأنها ــ أي الصلاة ــ من قبيل المشترك اللفظي. وهو يستدل لإثبات كل معنى من السنة والقرآن الكريم.

المثال الثاني: ما جاء في بيانه لمعنى المسح في قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾[1]، حيث يقول في المسألة الثالثة والأربعين: "قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: المسح لفظ مشترك، يكون بمعنى الجماع، يقال: مسح الرجل المرأة إذا جامعها. والمسح: مسح الشيء بالسيف وقطعه به. ومسحت الإبل يومها إذا سارت. والمسحاء المرأة الرسحاء التي لا أست لها. وبفلان مسحة من جمال. والمراد هنا بالمسح عبارة عن جر اليد على الممسوح خاصة، فإن كان بآلة فهو عبارة عن نقل الآلة إلى اليد وجرّها على الممسوح ..."[2].

فالقرطبي في هذا المثال أتى بالمعاني التي يفيدها لفظ المسح، وبين بعد ذلك المعنى المراد منه في الآية الكريمة، وهو جر اليد على الممسوح.

3ــ الأضداد:

جمع ضد وهو أن يطلق اللفظ على المعنى وضده كلفظ (الجون) الذي يطلق على الأبيض والأسود[3].

وقد انقسم اللغويون تجاه وقوع هذه الظاهرة في العربية بين منكر لها ومقرّ[4]. فكان القرطبي من جملة من أقرّ بوجود الأضداد في اللغة العربية، وتعرض لذكرها في كتابه الجامع. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أ ــ ما قاله في معنى (التهجد) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[5] حيث يقول في المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾: (مِن) للتبعيض. والفاء في قوله: "فتهجد" ناسقة على مضمر، أي قم فتهجد "به" أي بالقرآن. والتهجد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد، نام وهجد، سهر، على الضد. قال الشاعر:

ألا زارت وأهل منىً هجود ... وليت خيالها بمنىً يعود

آخر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود ... فباتت بعلاّت النوال تجود

---

[1] ــ سورة النساء، الآية 43.

[2] ــ القرطبي: الجامع 5/ 206 المسألة الثالثة والأربعون من تفسير الآية 43 من سورة النساء.

[3] ــ علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص: 186.

وأنظر :السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ص 387 ــ 389.

[4] ــ محمد بن القاسم الأنباري: كتاب الأضداد، ص: 1 ــ 2.تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. 1411هـ ــ 1991م.صيدا. بيروت. المكتبة العصرية.

وانظر السيوطي: المزهر في علوم اللغة 399/1.

[5] ــ سورة الإسراء، الآية 79.

يعني نياما. وهجد وتهجّد بمعنى. وهجدته أي نومته، وهجّدته أي أيقضته..."[1]

فهو يشير ــ صراحة ــ إلى أن لفظ: (التهجد) من الأضداد ويستدل على ما ذهب إليه من الشعر، حيث أتى ببيتين من الشعر ذكر فيهما لفظ التهجد الذي يفيد كلا المعنيين، السهر والنوم.

وأشار القرطبي إلى أن المقصود من الهجود في البيت الثاني هو: كونهم نياما فلزم أن يكون معنى الهجود في البيت الأول هو السهر، حتى يكون استدلاله مستوفٍ لكلا المعنيين.

ب ــ عند تفسير قوله تعالى: (إنّ لك في النهار سبحا طويلا)[2].

ذكر أن العامة قرأ لفظ (السبح) بالحاء غير المعجمة، وبيّن معناها على هذه القراءة. ثم ذكر أن البعض يقرؤها بالخاء المعجمة منهم يحي بن يعمر وأبو وائل، وذكر لها عدة معان على هذا الأساس، من بينها المعنى الآتي الذي ذكر فيه أن هذه اللفظة من الأضداد حيث يقول: "وقال ثعلب: السّبخ بالخاء. التردّد والاضطراب، والسّبخ أيضا السكون؛ ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: "الحمّى من فيح جهنم، فسبّخوها بالماء"[3] أي سكّنوها. وقال أبو عمرو: السبخ: النوم والفراغ.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السّبح، بالحاء غير المعجمة"[4].

فالقرطبي ذكر قول ثعلب وأبي عمرو في معنى (السّبخ)، وأنها تحتمل معنى التردد والاضطراب وكذا السكون ــ كما قال ثعلب ــ أي أنها تحتمل المعنى وضده، ولهذا نجده يعقب على قولهم، بأن نَسَبَ هذه اللفظة إلى فئة الأضداد.

ثالثا: ذكر ما وَرَدَ في اللفظ من أوجه إعرابية واختلاف النحويين:

قبل الخوض في هذا الموضوع، يجدر بي أن أنقل للقارئ ما جاء في تعريف الإعراب على لسان علماء اللغة، ثم انتقل إلى بيان كيفية تعامل القرطبي مع النصوص القرآنية ، وذلك بإبراز الجوانب الإعرابية فيها.

تعريف الإعراب:

الإعراب: تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا وتقديرا. وهو ظاهر قول سيبويه واختيار الأعلم وكثير من المتأخرين، وجعله ابن إياز قول أكثر أهل العربية[5].

وعرفه الدكتور: محمود حسني مغاسلة في كتابه النحو الشافي بقوله: "الإعراب تغيير حركة آخر الكلمة من رفع إلى نصب إلى جرّ، وفق تغير موقعها من الإعراب"[6]. والتعريفان متشابهان إلى حدّ ما.

---

[1] ــ القرطبي: الجامع 10/ 276 المسألة الأولى من تفسير الآية 79 من سورة الإسراء

[2] ــ سورة المزمل، الآية 7.

[3] ــ البخاري: الصحيح 4/ 428 ــ 429 كتاب بدأ الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة. بلفظ" الحمّى من فيح جهنم فابردوها بالماء"

[4] ــ القرطبي: الجامع 19/ 41 المسألة الخامسة من تفسير الآيات 6 ــ 7 من سورة المزمل.

وأنظر أيضا: الجامع 2/ 149 تفسير الآية 143 من سورة البقرة.

[5] ــ السيوطي: الأشباه والنظائر 1/ 173.

[6] ــ حسني محمود مغاسلة: النحو الشافي، ص 27. الطبعة الثالثة 1418هـ ــ 1997م. بيروت. لبنان. مؤسسة الرسالة.

. اهتمام القرطبي بالإعراب في تفسيره:

اهتم االقرطبي في تفسيره ببيان الأوجه الإعرابية للألفاظ الواردة في الآيات القرآنية، كما استعرض مذاهب النحويين في ذلك وبيّنَ اختلافاتهم. ولبيان ذلك نستعرض الأمثلة الآتية مع التحليل:

المثال الأول: وفي هذا المثال سنلاحظ كيف أن القرطبي يأتي بالوجه الإعرابي للفظ القرآني وهذا لبيان معنى الآية وتجليته.فعند تفسير قوله تعالى: (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام)[1]. يقول في المسألة الثانية:" قوله تعالى: (شطر المسجد الحرام) الشطر له محامل: يكون الناحية والجهة، كما في هذه الآية، وهو ظرف مكان، كما نقول: تلقاءه وجهته. وانتصب الظرف لأنه فضله بمنزلة المفعول به وأيضا فإن الفعل واقع فيه"[2].

فالقرطبي يبين معنى الشطر في هذه الآية الذي هو الناحية والجهة، ويشير إلى موقعها من الإعراب وهو كونها ظرف مكان، وهدفه من هذا هو الزيادة في البيان والإيضاح.

المثال الثاني: وفي هذا المثال سنلاحظ أن القرطبي يأتي بالوجه الإعرابي للفظ القرآني، ويستخلص بناءَ عليه الحكم الشرعي.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[3].يقول في المسألة الثانية عشرة: "قوله تعالى: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: (مع) تقتضي المعيّة والجمعيّة، ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن: إن الأمر بالصلاة أولا لم يقتضي شهود الجماعة، فأمرهم بقوله (مع) شهود الجماعة. وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين: فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السن المؤكدة، ... وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية"[4].

فنلاحظ أنّ القرطبي يذكر الوجه الإعرابي للفظ: (مع)، ويستخلص من ذلك؛ الحكم الشرعي المستفاد من هذا الوجه الإعرابي ألا وهو: كون شهود الجماعة من السنن المؤكدة عند الجمهور، وعند بعض العلماء هي فرض كفاية.

المثال الثالث: ومن خلال هذا المثال سيتضح لنا كيف أن القرطبي يستخدم ــ أحيانا ــ الإعراب في توجيه القراءات." فيقول في المسألة السابعة من سورة الفاتحة: وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من "الحمد لله"، وروي عن سفيان بن عيينة ورُؤية بن العجاج: "الحمدَ لله" بنصب الدال، وهذا على إضمار فعل. ويقال: "الحمدُ لله" بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيده؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل: "الحمدُ لله" بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدًا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد ــ يخبر أن الحمد منه وحده لله ..."[5].

---

[1] ــ سورة البقرة، الآية 144.

[2] ــ القرطبي: الجامع 2/ 149 المسألة الثانية من تفسير الآية 144 من سورة البقرة.

[3] ــ سورة البقرة، الآية 43.

[4] ــ القرطبي: الجامع 1/ 326 ــ 327 المسألة الثانية عشرة من تفسير الآية 43 من سورة البقرة.

[5] ــ القرطبي: الجامع 133/1 المسألة السابعة من الباب الرابع فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب.

فالقرطبي في هذا المثال يوجه القراءات على الإعراب فذكر أن لفظ (الحمد) قرئ بالضم والنصب على أنّ القراءة بالضمّ هي المجمع عليها من قبل القراء والعلماء.

المثال الرابع: وفي هذا المثال نجد القرطبي يوجه الإعراب على معاني الألفاظ مثال هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1]، حيث يقول في المسألة الحادية والأربعين:"وقد حكم أهل اللغة أن الصعيد اسم لوجه الأرض كما ذكرنا، وهو نص القرآن كما بيّنا، وليس بعد بيان الله بيان. وقال: صلى الله عليه وسلم للجنب: "عليك بالصعيد فإنه يكفيك"[2]وسيأتي. فـ: ﴿صَعِيدًا﴾ على هذا ظرف مكان. ومن جعله للتراب فهو مفعول به بتقدير حذف الباء أي بصعيد. و﴿طَيِّبًا﴾ نعت له. ومن جعل ﴿طَيِّبًا﴾ بمعنى حلال نصبه على الحال أو المصدر"[3].

فالقرطبي إذن يوجه الإعراب بحسب المعاني التي يحتملها لفظي ﴿صَعِيدًا﴾ و﴿طَيِّبًا﴾، حيث احتمل لفظ معنيين، فاختلف إعرابه بحسب هذين المعنيين، وكذلك لفظ ﴿طَيِّبًا﴾.

المثال الخامس: ومن خلال هذا لمثال سنلاحظ أن القرطبي لا يكتفي ببيان الوجه الإعرابي للفظ القرآني فحسب وإنما ينقل إلينا أحيانا ما ورد من اختلاف النحويين في إعراب الألفاظ القرآنية، فيقول في المسألة الثانية عشرة من البسملة:"اختلفوا أيضا في معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير: ابدأ بسم الله، أو على معنى الخبر؟ والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان:الأول للفراء، والثاني للزجاج. فـ "باسم" في موضع نصب على التأويلين. وقيل المعنى ابتدائي، بسم الله، ف(بسم الله) في موضع رفع خبر الابتداء، وقيل: الخبر محذوف؛ أي ابتدائي مستقر أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان "بسم الله" في موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك: زيد في الدار. وفي التنزيل﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[4]. فـ "عنده" في موضع نصب، روي هذا عن نحاة أهل البصرة. وقيل: التقدير ابتدائي بسم الله موجود أو ثابت، فـ "باسم" في موضع نصب بالمصدر الذي هو ابتدائي"[5].

فالقرطبي إذا ينقل ما ورد من اختلاف النحويين في معنى دخول الباء على (اسم) في البسملة، ولكن من دون أن يرجح رأي أحدهم على الآخر، ولعل هذا يدل على موافقته إياهم فيما ذهبوا إليه.

رابعا: إبراز النواحي البلاغية في تفسير القرطبي

تكلم القرطبي عن الصور البلاغية في تفسيره الجامع، لكنها جاءت قليلة، ، وأهم الصور التي صادفتها هي كالآتي:

1 ــ التشبيه:

---

[1] ــ سورة النساء، الآية 43.

[2] ــ مسلم. **الصحيح** 1/ 280 كتاب الحيض. باب التيمم، بلفظ: "إنما كان يكفيك أن تقول هكذا" وضرب بيديه على الأرض. فنفض يديه فمسح وجهه وكفّيه.

[3] ــ القرطبي: **الجامع** 5/ 205 المسألة الحادية والأربعون من تفسير الآية: 43 من سورة النساء.

[4] ــ سورة النمل، الآية 40.

[5] ــ القرطبي: **الجامع**: 1/ 95 ــ 96 المسألة الثانية عشرة من البسملة. وانظر أيضا في هذا السياق: الجامع: 5/ 102 المسألة الثانية من تفسير الآية: 102 من سورة النساء.

وهو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى[1].

وقد ذكر القرطبي التشبيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[2]، حيث يقول في معنى الكعبين وهذا في المسألة الرابعة عشرة:" ... وروى الطبري عن يونس عن أشعب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما هما العظمان الملتصقان بالساق المحاذيان للعقب، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم.

قلت: هذا هو الصحيح لغة وسنة، فإن الكعب في كلام العرب مأخوذ من العلو، ومنه سميت الكعبة، وكعبت المرأة إذا فلك ثديها، وكعب القناة أنبوبها، وأنبوب مابين كل عقدتين كعب، وقد يستعمل في الشرف والمجد تشبيها"[3]

فالقرطبي ذكر أن الكعب قد يستعمل للشرف والمجد، وأن هذا من باب التشبيه، لكنه لم يذكر نوعه. والغرض من هذه الصورة البلاغية، يهدف أساسا إلى بيان معنى الكعب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ لينتهي إلى تحديد الحكم الشرعي المستفاد من هذه الآية.

2 ــ الحقيقة والمجاز:

ــ الحقيقة: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب[4].

ــ والمجاز: وهو الكلمة المستعملة في غيرما وضعت له في اصطلاح به التخاطب[5].

وقد أشار القرطبي إلى الحقيقة والمجاز عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾[6]، حيث يقول في المسألة الثانية:"قوله تعالى: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي كرامة لك؛ قاله مقاتل. واختلف العلماء في تخصيص النبي عليه الصلاة والسلام بالذكر دون أمته؛ فقيل: كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله: "نافلة لك" أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة.

قلت: وفي هذا التأويل بعد لوجهين: أحدهما: تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة"[7].

فهو يبين في هذه المسألة أن تسمية الفرض المقصود من هذه الأية بالنافلة، هو من قبيل المجاز لا الحقيقة، وفي هذا تجلية لمعنى الآية، وبيانا للحكم الشرعي المستفاد منها.

3 ــ الاستعارة:

---

[1] ــ الخطيب القزويني: **الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع**، ص: 217. لبنان. بيروت. دار اكتب العلمية.

[2] ــ سورة المائدة، الآية 06.

[3] ــ القرطبي: **الجامع** 6/ 60. المسألة الرابعة عشرة من تفسير الآية 06 من سورة المائدة.

[4] ــ الخطيب القزويني، **الإيضاح** ص272.

[5] ــ المصدر نفسه، ص 274.

[6] ــ سورة الإسراء، الآية 79.

[7] ــ القرطبي: **الجامع** 10/ 277 المسألة الثانية من تفسير الآية: 79 من سورة الإسراء.

وهي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له[1]. وقد ذكرها القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[2] حيث يقول في المسألة الخامسة:"قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ﴾: الركوع في اللغة الانحناء بالشخص؛ وكل منحن راكع. قال لبيد:

أخبّرُ أخبار القرون التي مضت أدبُّ كأني كُلما قمت راكعُ.

وقال ابن دريد: الركعة الهوة في الأرض، لغة يمانية: وقيل: الانحناء يعم الركوع والسجود، ويستعار أيضا في الانحطاط في المنزلة. قال:

ولا تعاد الضعيف علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه"[3]

فالقرطبي بعد إتيانه للمعاني المحتملة للفظ الركوع، بين أنه يستعار في الانحطاط في المنزلة، واستدل على هذا بما ورد في الشعر، والهدف من ذلك هو تقريب صورة الركوع وتوضيحها في ذهن القارئ وهذا تمهيدا في الدخول في صلب الموضوع وهو بيان المعنى الاصطلاحي للركوع الشرعي، وبيان أحكامه أيضا. وعليه فإن إيراده للصور البلاغية في تفسيره للآيات القرآنية، يهدف إلى بيان معاني ألفاظها، وهذا يسهل استنباط الأحكام منها.

4 ــ الكناية:

وعرفها الخطيب القزويني بأنها: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ. كقولك: فلان طويل النجاد أي طويل القامة[4].

وقد ذكر القرطبي الكناية عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ﴾[5]. حيث يقول في المسألة السابعة والعشرين: " قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ﴾ تقدم في (النساء) مستوفي، ونزيد هنا مسألة أصولية أغفلناها هناك، وهي تخصيص العموم بالعادة الغالبة، فإن الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين كما بيناه في (النساء) فهو عام، غير أن جل علمائنا خصصوا ذلك بالأحداث المعتادة الخارجة على الوجه المعتاد، فلو خرج غير المعتاد كالحصى والدود، أو خرج المعتاد على وجه السّلس والمرض لم يكن شيء من ذلك ناقضا"[6].

---

[1] ــ الخطيب القزويني، **الإيضاح**. ص 285.

[2] ــ سورة البقرة، الآية 43.

[3] ــ القرطبي: **الجامع** 1/ 323 المسألة الخامسة من تفسير الآية 43 من سورة البقرة.

[4] ــ الخطيب القزويني: **الإيضاح** ص 330.

[5] ــ سورة المائدة، الآية 6.

[6] ــ القرطبي: **الجامع** 6/ 66 المسألة السابعة والعشرون من تفسير الآية: 06 من سورة المائدة.

فالقرطبي أشار في تفسير هذه الآية التي تتضمن أحكام التيمم إلى صورة بلاغية، وهي كون الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين، وهو يهدف من وراء ذلك بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بموضوع التيمم من خلال هذه الصور البلاغية.

خامسا: استخدام الشواهد الشعرية في حل الإشكاليات اللغوية:

استعان القرطبي كثيرا بالشواهد الشعرية في تفسير الآيات ، وقد أشار في مقدمة كتابه الجامع إلى أهمية الاحتجاج بالشعر لفهم ما خفي من معاني القرآن الكريم حيث قال:"قال ابن الأنباري: وجاء عن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وتابعيهم رضوان الله عليهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب النحويين في ذلك، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم. من ذلك ما حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أنبأنا ابن فروخ قال: أخبرني أسامة قال: أخبرني عكرمة أن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"[1].

كما أنه ساق لنا بعض المواقف عن الصحابة الكرام أنهم كانوا يعتمدون في فهم معاني ألفاظ القرآن الكريم على ما جاء في أشعار العرب من بينها: ما جاء عن عكرمة عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعز: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2] قال: لا تلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سوءة أتقنع

وسأل رجل عكرمة عن الزّنيم قال: هو ولد لزنى، وتمثل ببيت شعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم"[3]

إلى غير ذلك من الشواهد التي ساقها القرطبي في مقدمة تفسيره، والتي تعطينا صورة واضحة عن مدى اهتمامه بالشعر العربي للاستعانة به في تفسير القرآن الكريم. وقد تمثل استشهاده بالشعر في مواقف مختلفة هي كالآتي:

1 ــ أنه يستشهد بالشعر لبيان معنى الألفاظ الواردة في الآيات القرآنية الكريمة ومن أمثلة ذلك ما يلي:

المثال الأول: يقول القرطبي في المسألة الثامنة من تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[4] "وقوله تعالى: "على الخاشعين": الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع، والخشوع معناه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع، وقال قتادة: الخشوع في القلب، وهو الخوف وغض

---

[1] ــ القرطبي: الجامع 1/ 32 باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا.

[2] ــ سورة المدثر، الآية 4.

[3] ــ القرطبي: الجامع 32/1

[4] ــ سورة البقرة، الآية 45.

البصر في الصلاة. قال الزجاج: الخاشع هو الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، كخشوع الدار بعد الإقواء، هذا هو الأصل. قال النابغة:

رماد ككحل العين لأيًا[1] أبيّنـــــة ونُؤيٌ[2] لجذْم[3] الحوض أثلم خاشـــع[4]"

فالقرطبي في هذا المثال يبين معنى لفظ الخاشع ويستدل على ذلك ببيت من شعر النابغة لتأكيد هذا المعـــنى وتوضيحه.

المثال الثاني: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ كُـــلٌّ لَّـــهُ قَانِتُونَ﴾[5]، يقول القرطبي في المسألة الخامسة مبينا معنى القنوت: "فالقنوت الطاعة، والقنوت السكوت، ومنه قول زيد بن الأرقم، كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه إلى جنبه حتى نزلت: "وقومـــوا لله قـــانتين" فأمرنـــا بالسكوت ونهينا عن الكلام، والقنوت: الصلاة،

قال الشاعر:

قانتا لله يتلو كتبـــــــه وعلى عمد من الناس اعتـــــــزل[6]".

فالقرطبي بين معنى القنوت الذي هو الصلاة.واستشهد على هذا المعنى بما ورد من الشعر والملاحظ أنـــه لم يذكر اسم الشاعر الذي استشهد بشعره ولعل السبب في ذلك يعود لعدم وقوفه على اسمه.

2 ــ أنه يستشهد بالشعر لبيان مسألة نحوية وأمثلة على ذلك ما يلي:

المثال الأول: عند تفسير قوله تعالى: (الحمد لله) من سورة الفاتحة يقول في المسألة السابعة: " ... وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: "الحمد لله" ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولـــوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما قال الشاعر:

وأعلم أنني سأكون رمســـــــا إذا سار النواعج[7] لا يسيـــــــــــــر

فقال السائلون لمن حفرتـــــم فقال القائلون لهم وزيـــــــــــــر

المعنى المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير[8]

---

[1] ــ اللأي: المشقة والجهد. أنظر: ابن منظور لسان العرب 15/ 237.

[2] ــ النؤي: الحاجز حول الخيمة أو الحفر حول الخباء. ابن منظور: **لسان العرب** 301/15.

[3] ــ الجذم بالكسر أصل الشيء ويراد به في هذا البيت: بقية الحوض أو قطعة منه . أنظر ابن منظور: لسان العرب 88/12

[4] ــ القرطبي: **الجامع** 1/ 352. المسألة الثامنة من تفسير الآية 45. من سورة البقرة.

[5] ــ سورة البقرة، الآية 116.

[6] ــ القرطبي: **الجامع** 2/ 82. المسألة الخامسة من تفسير الآية 116 من سورة البقرة.

[7] ــ النواعج: من الإبل السراع. ابن منظور: **لسان العرب**، 2/ 381.

[8] ــ القرطبي: **الجامع**، 1/ 133 المسألة السابعة من تفسير الآية الأولى من سورة الفاتحة: الباب الرابع، فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب.

فالقرطبي في هذا المثال استشهد بالشعر للدلالة على مسألة لغوية مفادها: وقوع الحذف في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأن معناه قولوا الحمد لله، فحذف لفظ قولوا لأن ظاهر الكلام يدل عليه.

المثال الثاني: عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] يقول القرطبي في المسألة الرابعة والعشرين: "إن قيل: لم قدم المفعول على الفعل؟. قيل له: قدم اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم. ... وأيضا لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيتقدم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن.

وقال العجاج:

إياك أدعو فتقبّل مَلَقِي واغفر خطاياي وكثر ورقي

ويروى: وثَمر. وأما قول الشاعر [حميد الأرقط]:

إليك حتى بلغت إيّاكا

فشاذ لا يقاس عليه. والورق بكسر الراء من الدراهم، وبفتحها المال. وكرر الاسم لئلا يتوهم: إياك نعبد ونستعين غيرك"[2].

فنلاحظ أن القرطبي استدل بالشعر على مسألة التقديم والتأخير ــ وهي مسألة نحوية وبلاغية ــ فأتى بشعر العجاج لتأكيد جواز وقوع التقديم والتأخير في قوله تعالى: (إياك نعبد).

كما أتى بعجز لبيت من الشعر، ولم يقع فيه تقديم (إياك) على الفعل، ولكن القرطبي وصف هذه الحالة بالشذوذ، وأنه لا يقاس عليها.وفي هذا دليل على إطلاعه على لغة القرآن.

3 ــ استدلاله بالشعر على القراءات الواردة في الألفاظ القرآنية، ومثال ذلك ما يلي:

يقول القرطبي في المسألة الخامسة في التأمين: "وفي آمين لغتان: المدّ على وزن فاعيل كياسين، والقصر على وزن يمين.

قال الشاعر في المدّ:

يارب لا تسلبني حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر:

آمين، آمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها ألفين آمينا

وقال آخر في القصر:

تباعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه أمينَ فزاد الله ما بيننا بعدا."[3]

---

[1] ــ سورة الفاتحة، الآية: 5.

[2] ــ القرطبي، الجامع 1/ 142 المسألة الرابعة والعشرون من تفسير وسورة الفاتحة. الباب الرابع.

[3] ــ القرطبي، الجامع 1/ 126. المسألة الخامسة من التأمين.

فالقرطبي ذكر أن (آمين) قرئ بالمد والقصر، واستدل على كل قراءة بالشعر وهذا لتأكيد صحة ما ذهب إليه.

4 ــ استدلاله بالشعر لبيان مسألة إعرابية:

ومثال ذلك ما جاء في المسألة العاشرة من مسائل البسملة حيث يقول:

"ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنّى إلى أن (اسم) صلة زائدة، واستشهد بقول لبيد:

إلى الحَوْل ثم اسم السلام عليكما وَمن يبْك حوْلاً كاملاً فقد اعتذر

فذكْرُ(اسم) زيادة، وإنما أراد: ثم السلام عليكما.

وقد استدل علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى"[1].

فالقرطبي بين موقع (اسم) من الإعراب على لسان أبي عبيدة، وهي كونها صلة زائدة، واستشهد على ذلك بقول لبيد لتأكيد ما ذهب إليه.

سادسا: استخدام اللغة في توجيه القراءات:

اهتم القرطبي اهتماما بالغا بالقراءات القرآنية، وتجلى هذا بوضوح في تفسيره الجامع حيث نجده يورد القراءات المختلفة في الكلمة الواحدة من الآية القرآنية، مع نسبة كل قراءة إلى صاحبها على الأغلب، كما يبين ما صح منها وما شذ، وقد عقد في مقدمة تفسيره بابا تحدث فيه عن معنى الأحرف السبعة التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه"[2].

وتطرّق إلى اختلاف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا، اختار القرطبي منها خمسة أقوال، وفصل القول فيها، معتمدا في ذلك على آراء العديد من العلماء كابن عطية، وابن عبد البر، والقاضي ابن الطيب، وغيرهم* كما ضمن هذا الباب فصلا تكلم فيه عن القراءات ونسبتها، وأن هذه القراءات السبعة ليست هي الأحرف السبعة، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، كما تكلم عن القراءات المشهورة وأنها هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وهي الثابتة بالإجماع، وبها يصلي كما لم يفته أن يشير إلى ما شذ من القراءات، وأنها ليست من القرآن، ولا يصلي بها.**

وبهذا يكون القرطبي قد أعطى صورة واضحة ومكتملة الجوانب لمفهوم القراءات، فقد بدأ بإعطاء المفاهيم المتعلقة بهذا الموضوع في مقدمة تفسيره، ثم عمل على تجسيدها أثناء تفسيره للألفاظ القرآنية الكريمة، وذلك بإبراز ما ورد في هذه الألفاظ من قراءات مختلفة ولغات متباينة .

---

[1] ــ القرطبي، الجامع 1/ 95 المسألة العاشرة من البسملة.

[2] ــ مسلم: **الصحيح** 1/ 560. كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف. وبيان معناه.

* لمزيد من الإيضاح أنظر: القرطبي، **الجامع** 1/ 46 إلى51. المقدمة باب قول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إنا هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه".

** لمزيد من الإيضاح أنظر: القرطبي: **الجامع** 1/51،46 باب:قول النبي(صلى الله عليه مسلم):" إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسر منه"

وأثناء دراستي وجدت أن جهود القرطبي في القراءات يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

1 ــ استعراض القراءات الواردة في اللفظ القرآني من دون ترجيح أو تعقيب. ومثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾[1] يقول في المسألة الخامسة :"وأنتم سكارى " ابتداء وخبر، جملة في موضع الحال من " تقربوا" ، و "سكارى" جمع سكران مثل كسلان وكسالى، وقرأ النخعي " سكرى " بفتح السين على مثال فعلى، وهو تكسير سكران، وإنما كسر على سكرى لأن السكر آفة تلحق العقل فجرى مجرى صرعى وبابه. وقرأ الأعمش "سكرى" كحبلى فهو صفة مفردة؛ وجاز الإخبار بالصفة المفردة عن الجماعة على ما يستعملونه من الإخبار عن الجماعة بالواحد" [2] .

فالقرطبي يستعرض القراءات الواردة في لفظ "سكارى" دون أن يعقب عليها بترجيح أو رد .

2 ــ استعراض القراءات مع التعقيب عليها، ومثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[3] وذلك في المسألة التاسعة والعشرين من سورة الفاتحة حيث يقول: " وفي "عليهم" عشر لغات؛ قرئ بعامتها: "عليُهمْ" بضم الياء وإسكان الميم . و"عليهم" بكسر الهاء واسكان الميم . و"علهِيمِي" بكسر الهاء والميم والحاق ياء بعد الكسرة. و"عليهِمُو" بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و " عليْهمو" بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و"عليهُمُ" بضم الهاء والميم من غير زيادة واو. وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء. وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القراء : "عليهُمِي" بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم؛ حكاه الحسن البصري عن العرب. و"عليهم" بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء. و "عليهِمُ" بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو. و"عليهِمِ" بكسر الهاء والميم، ولا ياء بعد الميم. وكلها صواب؛ قاله ابن الانباري"[4].

فالقرطبي أورد عشر لغات وردت في قراءة لفظ "عليهم"، منها ستة مأثورة عن الأئمة القراء، والأربعة الأخيرة غير مأثورة عنهم، ولكن وردت في لغات العرب. وقد عقب القرطبي بعد سرده لهذه القراءات بتصحيحها جميعا، وذلك وفقا لما جاء على لسان ابن الأنباري.

3 ــ استعراض القراءات الواردة في اللفظ القرآني، وبيان أثرها في اختلاف الأحكام الشرعية.

ومثال هذا ،آية الوضوء من سورة المائدة، أين عرض القرطبي لاختلاف العلماء في غسل الرجلين بناء على القراءات الثلاث التي وردت في قوله تعالى: (وأرجلكم) يقول في المسألة الثالثة عشرة من تفسير قوله تعالى:

---

[1] ــ سورة النساء ، الآية 43 .

[2] القرطبي : الجامع 5 / 177 . المسألة الخامسة من الآية 43 من سورة النساء .

وأنظر أيضا كمثال لهذا الوجه :

القرطبي : الجامع 5 / 193 ـــ 194 المسألة السادسة والعشرون من تفسير الآية 43 من سورة النساء .

[3] ــ سورة الفاتحة، الآية 7

[4] ـــ القرطبي : الجامع 1 / 145 المسألة التاسعة والعشرين من الباب الرابع من سورة الفاتحة.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: "وأرجلكم" قرأ نافع وابن عامر والكسائي: "وأرجلكم" بالنصب، وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ "وأرجلكم" بالرفع، وهي قراءة الحسن والأعمش سليمان، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وحمزة "وأرجلكم" بالخفض وبحسب هذه القراءات اختلف الصحابة والتابعون"[2]وبعد هذا العرض للقراءات التي وردت في لفظ (وأرجلكم) ينتقل القرطبي إلى الكلام عن أقوال الفقهاء في هذه المسألة وأدلتهم التي اعتمدوها لذلك الغرض، مع تعقيبه على تلك الأقوال بمناقشتها وترجيح ما يراه صوابا، وقد رأيت أن أوجز ما ورد من تفسير القرطبي لهذه المسألة نظرا لطول النص، وتشعب قضاياه، وأن أقتصر فقط على إبراز الشواهد التي لها علاقة بالموضوع المراد بحثه وهو أثر اختلاف القراءات في تعدد الأحكام الشرعية في المسألة الواحدة.

يقول القرطبي في هذا السياق:

"فمن قرأ بالنصب جعل العامل: "أغسلوا" وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل دون المسح، وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء، وهو الثابت من فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء، قال ابن العربي: اتفق العلماء على وجوب غسلها، وما علمت من رد ذلك سوى الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم. وتعلق الطبري بقراءة الخفض... وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح، وجعل القراءتين كالروايتين.قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه؛ أن المسح والغسل واجبان جميعا، فالمسح واجب على قراءة من قرأ بالخفض، والغسل واجب على قراءة من قرأ بالنصب، والقراءتان بمنزلة آيتين، قال ابن عطية: وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن المسح في الرجلين هو الغسل"[3].

فالقرطبي ناقش قراءة النصب والجر، إلا أنه أغفل مناقشة قراءة الرفع، وبين ما ترتب على هاتين القراءتين من أحكام شرعية، مع ترجيحه في الأخير لقراءة النصب، وبالتالي دعمه لرأي الجمهور القائل بوجوب الغسل.حيث يقول: "قلت: والقاطع في الباب من أن فرض الرّجلين الغسل ما قدمناه، وما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام: "ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار"[4]...، فتبين بهذا الحديث بطلان قول من قال بالمسح"[5].

وعليه نستنتج أن القراءات التي ترد على الألفاظ القرآنية الكريمة لها دورا كبيرا في توجيه الأحكام الشرعية فكثيرا ما يختلف الحكم الشرعي باختلاف القراءة الواردة على اللفظ الواحد.

---

[1] ــ سورة المائدة، الآية 6.

[2] ــ القرطبي، **الجامع**، 5/ 55. المسألة الثالثة عشرة من تفسير الآية 06 من سورة المائدة.

[3] ــ القرطبي: **الجامع** 6/ 55 ــ 56 المسألة الثالثة عشرة من تفسير الآية 6 من سورة المائدة

[4] ــ مسلم: **الصحيح**. 1/ 213 ــ 214 ــ 215. كتاب الطهارة باب: وجوب غسل الرجلين بكمالهما.

[5] ــ القرطبي: **الجامع**، 6/ 58.

4 ــ استعراضه للقراءات مع بيان المردود منها، وذكر ما ترجع إليه هذه القراءات من اللغات:

ومثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)[1]، يقول في المسألة الخامسة والعشرين: "الجمهور من القراء والعلماء على شدّ الياء من (إياك) في الموضعين. وقرأ عمرو بن فائد: (إياك) بكسر الهمزة وتخفيف اليـاء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها، وهذه القراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير: شمسك نعبد أو ضوءك، وإياة الشمس (بكسر الهمزة) ضوءها. وقال طرفة بن العبد:

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمس إلا لِثاتِـــــــــــه أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليه بإثْمِـــد

وقرأ الفضل الرقاشي: (أياك) (بفتح الهمزة) وهي لغة مشهورة. وقرأ أبو السوار الغنوي: (هياك) في الموضعين، وهي لغة، قال:

فهياك والأمر الذي إن توسعـــــت موارده ضاقت عليك مصادره[2]"

نلاحظ في هذا المثال أن القرطبي استعرض قراءة الجمهور والقراء للفظ (إياك)، حيث كانوا يقرؤونها بتشديد الياء، ورد ما ورد في قراءتها بكسر الهمزة وتخفيف الياء وهي قراءة عمرو بن فائد، لكون هذه القراءة تؤدي إلى تغيير معنى الآية الكريمة، وعبرعن ذلك بقوله: "وهذه القراءة مرغوب عنها".ثم ساق بعد ذلك ما جاء من قراءات أخرى لهذا اللفظ، وعقب عن كل واحدة منها بقوله: "وهي لغة مشهورة، وقوله في الثانية: "وهي لغة"، وهذا دليل على قبوله لهاتين القراءتين لكونهما واقعتان في لغة العرب.

خاتمة:

في الختام يمكن أن نخلص إلى أن البعد اللغوي في تفسير القرطبي ينحصر في النقاط التالية:

1 ــ فقد رأيناه يهتم ببيان ظاهرتي النحت والاشتقاق، ويبرز مدى ورودهما على ألفاظ الآيات القرآنية.

2 ــ ورأيناه يهتم ببيان دلالات الألفاظ، من إظهار معانيها اللغوية، وبيان المشترك اللفظي، والأضداد.

3 ــ كما اعتنى ببيان الصور البلاغية، من تشبيه، واستعارة، وكناية، وحقيقة، ومجاز.

4 ــ وتمثلت عنايته باللغة أيضا، في اهتمامه بالجوانب الإعرابية والنحوية لألفاظ هذه الآيات.

5 ــ هذا، وكان للشعر نصيبا، وحظا وافرا من عنايته واهتمامه باللغة، حيث كان يسوق الشواهد الشعرية للزيادة في بيان الألفاظ وتأكيد ما ورد فيها من مسائل نحوية، وإعرابية، كما يستدل بها أيضا على القراءات الواردة على ألفاظ هذه الآيات، وهو في كل هذا يذكر اسم الشاعر ــ صاحب البيت ــ وأحيانا لا يذكره.

---

[1] ــ سورة الفاتحة: الآية 5.

[2] ــ القرطبي: الجامع، 1/ 143 المسألة الخامسة والعشرون من الباب الرابع من تفسير سورة الفاتحة.

6 ــ واهتم أيضا ببيان القراءات التي ترد على الألفاظ القرآنية، وبين أثرها في اختلاف الأحكام الشرعية، وفصل القول فيما ترجع إليه تلك القراءات من لغات، مع بيان ما هو مقبول منهاــ وما هو مرغوب عنها.

7ــ كما لا يفوتني أن أنبه القارئ بأن إثارة القرطبي لكل هذه الجوانب المختلفة من الدراسات اللغويــة، التي تنصب على النصوص القرآنية، يهدف أولا وأخيرا إلى بيان معاني هذه النصوص وتجليتها، وبالتالي تــسهيل عملية استنباط الأحكام الشرعية منها.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن جني:

ــ الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. بيروت. لبنان. دار الكتاب العربي.

مؤسسة الرسالة.

2- ابن خلكان:

ــ وفيات الأعيان. تحقيق: إحسان عباس بيروت. لبنان. دار صادر.

3- ابن منظور:

ــ لسان العرب المحيط. ط 1408 ـــ 1985 م. بيروت . لبنان. دار الكتب العلمية.

ــ لسان العرب . بيروت . لبنان . دار إحياء التراث العربي.

4- ابن النديم:

ــ الفهرست. تحقيق : يوسف علي طويل. ط 1 1416 هـ ـــ 1996 م بيروت لبنان دار الكتب العلمية.

5- ابن الأنباري :

- كتاب الأضداد . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. ط 1411 هـ 1991 م. بيروت. صيدا. المكتبة العصرية.

6- البخاري:

ــ صحيح البخاري . بيروت. لبنان . دار الكتب العلمية

7- الحاكم النيسابوري:

- المستدرك. بيروت. لبنان. دار الكتاب العربي

- معرفة علوم الحديث. ط 2 . 1397 هـ ــ 1977م . بيروت. لبنان. دار الكتب العلمية.

8- الخطيب البغدادي:

ــ تاريخ بغداد. مكتبة الخانجي. القاهرة. دار الفكر.

9- الخطيب القزويني:

- الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، ص: 217. لبنان. بيروت. دار اكتب العلمية

10- القرطبي (محمد بن أحمد):

ــ الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عرفان العشا. ط: 1415 هـ 1995 م بيروت. لبنان. دار الفكر

ــ التذكار في أفضل الأذكار. تحقيق: بشير محمد عيون. دمشق. سوريا. مكتبة دار البيان .

11- السيوطي (جلال الدين):

ـ الإتقان في علوم القرآن. بيروت. لبنان. دار المعرفة .

ـ المزهر في علوم اللغة. بيروت. لبنان. دار الفكر .

12- الشاطبي :

ـ الموافقات في أصول الأحكام دار الفكر

ـ الموافقات في أصول الشريعة. بيروت. لبنان. دار الكتب العلمية

ـ الزاهر في معاني كلمات الناس. تحقيق: حاتم صالح ضامن ط 1 1412 هـ 1992 م. بيروت. مؤسسة الرسالة.

13- الشيرازي (أبو إسحاق):

ـ طبقات الفقهاء . تحقيق: إحسان عباس. ط 2 . 1401 هـ ـــ 1981 م

14- عبد الله العلايلي:

ـ الصحاح في اللغة والعلوم. ط 1 . بيروت. دار الحضارة العربية.

15- محمود حسني مغاسلة:

ـ النحو الشافي. ط 3 . 1418 هـ ـ 1997 م. بيروت. لبنان. مؤسسة الرسالة.

16- عبد الله العلايلي:

ـ الصحاح في اللغة والعلوم. ط 1 . بيروت. دار الحضارة العربية.

17- مسلم:

ـ صحيح مسلم. تحقيق: فؤاد عبد الباقي. بيروت. لبنان. دار إحياء الكتب.

18- مصطفى إبراهيم المشني:

ـ مدرسة التفسير في الأندلس ط 1 . 1406 هـ ـ 1986 م. بيروت. لبنان. مؤسسة الرسالة.

19- عبد القادر رحيم جدي الهيثي:

ـ أبو عبد الله القرطبي وجهوده في النحو واللغة في كتابه. ط 1 . 1417 هـ ـــ 1996 م. بيروت. لبنان. مؤسسة الرسالة

20- علي عبد الواحد وافي:

ـ فقه اللغة. ط 6 . 1388 هـ ـ 1968 م. الفجالة. القاهرة. دار نهضة مصر للطبع والنشر.